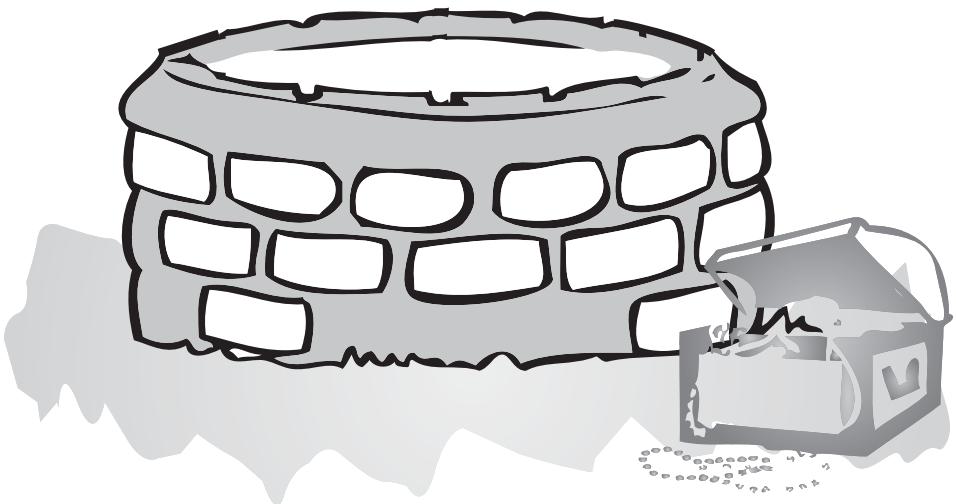

الأخسف بئر الكعبة وخزنتها
دراسة في أدواره التاريخية

الدكتور عمار عبودي نصار - كلية الآداب/ جامعة الكوفة

مقدمة:

تــرك البناء الذي بناه إبراهيم عليه السلام ـ بواد غير ذي زرع وأســكن فيه ذرّيته، وأذَّن في الناس؛ لكي يأتوا إليه حجاجاً، وعلى كل ضامر، ومن كل فج عميق

ـ انطباعـاً ظـل يتعاظـم في عقول الناس منذ ذلك العصر السـحيق، وإلى يومنـا الحاضر ، ولا سـيما أنّ الحج لهذا البيت عدّ الركن الخامس لأركان الإسلام، الدين الخاتم للأديان السماوية.

كلّ ذلك قد حدث في وقت شاء الله أن يعيد إلى الوجود بيته وكعبته، الذي اندرسـت معالمـه منذ طوفان نوح، ليكون إحياؤه على يدي خليله إبراهيم وابنـه البكر إسماعيل عليهما السلام، وهذه المشـيئة التي تجسـدت بهذا العمل الذي قام به هـذان النبيّان، قد أكسـبه صبغة تختلـف عن التي اصطبغـت بهـا الأبنية المقدسـة الأُخرى عند باقي الملل من البشـر، إذ شـكل كل معلم وشـاخص من هـذا البنـاء دلالة ورمزيـة تختلف بمضمونها وجزئياتها عن باقي معالم البيت الأخرى من الحجر الأسود إلى حجر إسماعيل (الحطيم) إلى الأركان الأربعة إلى الشاذروان، والمقام الذي وقـف عليه إبراهيـم واتخذ مصلى إلى بئر زمـزم والبئر التي في جوف الكعبة (الأخسـف) الذي هو محل البحث؛ كل هـذه المعالم التي وضع لمسـاتها إبراهيـم عليه السلام قـد كانت محل اهتمـام الشـعراء والمؤرخين والإخباريـين والرواة، الذين فاحت رواياتهم وأحاديثهم على كل واحد من هذه المعالم..

لأجل مـا تقدم، فقـد لاحظت من خلال اطلاعـي المتواضع على البحوث و الدراسـات، التي كتبت عن معالم البيت تلـك، لم أجد ممن ركـز في البحث على بئر الكعبة أو جبّ الكعبة، وكما اصطلحوا على تسـميته بالأخسـف أو الأخشف؛ إذ وجـدت أنّ هـذه البئر قد مرت عليهـا أدوار تاريخية متعددة جعلتها رمزاً من رموز البيت العتيق، ومحطّ أنظـار كلّ من تعاقب عليها، وذلك

للمهمة والغرض الذي من أجله قد حفر في جوف الكعبة.

دفعتني وفرة النصوص، التي حفلت بها المصادر المتقدمة في الحديث عن هذا الجبّ، إلى الخوض في بحثه من خلال تسليط الضوء على الأدوار التاريخية المتعاقبة له خلال القرون، التي سبقت الإسلام والتي تلته إلى أن عفيت آثاره، وسويت جنباته بأرضية الكعبة، بعد أن انتفى الغرض الذي من أجله قد حفر؛ ليكون خزينة ووعاء للهدايا والهبات، التي يقدمها الناس لهذا البيت.

ابتدأت بحثي هذا بالوجه اللغوي لتسمية هذه البئر بالأخسف أو الأخشف، ثمَّ أردفت ذلك بالوقوف على الإشارات التي تفرقت هنا وهناك في جنبات المصادر، التي تطرقت بالحديث عن هذه البئر، ولا سيما تلك التي تحدثت عن حفر إبراهيم لها ومقدار العمق الذي انتهى إليه، ثمَّ التضاؤل الذي حصل في عمقها نتيجة التراكم والهدم، الذي انتاب جدرانها نتيجة تقادم الزمن وتعاقب العصور.

أردفت كلامي آنف الذكر بالتطرق إلى الموروث الشفاهي، الذي وصل إلينا عن الحوادث الغابرة، التي مرت على بئر الكعبة قبل الإسلام، والهدايا التي رميت فيها، والأيادي التي امتدت لسرقتها، وموقف كل من جرهم، وخزاعة، وقريش، (القبائل التي تولّت رعاية الحرم) من الكنوز والأموال الموجودة فيها.

أعقبت ذلك بما كان من أثر السيول وحالات البناء المتكررة للبيت الحرام على البئر والتصرف بالأموال الموجودة فيها، وما كان من حادثة بناء قريش الكعبة أيام شباب الرسول ﷺ ومشاركته في هذا

البناء، ثمَّ ما كان من المواقف، التي اتخذها ﷺ بعد فتحه لمكة، ومحاولته التصرف بالأموال التي كانت في هذه البئر.

ثمَّ عطفت بعد ذلك بعرض الأحداث، التي رافقت هذا البيت المعظم من الجاهلية والإسلام، من خلال ما جرى في العصر الراشدي من حوادث، ورغبة بعض خلفائه في التصرف بالأموال الموجودة في هذه البئر، أو خزانة الكعبة وإنفاقها في أمور المسلمين، وموقف أعيان الصحابة وكبارهم من هذا المستجد، الذي لم يألفوه في السابق.

ثمَّ الحديث عن المجريات التي حدثت في العصر الأموي، من ضرب الكعبة بالمنجنيق، وحرقها، وتهديمها أيام ابن الزبير، وبنائها مرة أخرى، وما طرأ من المحدثات في تلك الحوادث المتسارعة، والتي لم تحدث أيام الجاهلية من تدنيس حرمة بيت الله والتعدي عليه بهذا الشكل.

أردفت ذلك الأمر بالتعريج على الحوادث، التي جرت في العصر العباسي من التعدي على هذا المال، وأخذه حتى كانت حادثة الطالبي بمكة هي لحظة التوقف لهذا البحث، إذ انتهى فيه وجود البئر كضرورة لخزن مال الكعبة بعد أن أفرغت في الثورة التي حصلت أيام المأمون.

أعتمد البحث على مصادر متنوعة، كان لكتب التواريخ المحلية المتخصصة في تاريخ مكة القدح المعلى في إرداف البحث بنصوص قيمة، قلما تجدها في مصادر غيرها، يقف في طليعة تلك الكتب كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، لأبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي (ت٢٤٤هـ)، حيث قدم للبحث فائدة مثلى، وذلك لإحتوائه على نصوص مهمة ومتنوعة حول تاريخ مكة، والقبائل التي تعاقبت

على رعاية بيت الله الحرام، والحوادث التي رافقت كل منها.

ثم يأتي الدور لكتب التواريخ العامة، فقد كان لها هي الأخرى الدور البارز في إرفاد البحث بنصوص فريدة، طورت من حركية البحث، ودعمت الفرضيات التي بني عليها، حيث كان كتاب تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في طليعة تلك الكتب، ثم تجيء كتب السيرة النبوية على صاحبها أشرف سلام وتحية، ولاسيما السيرة التي كتبها محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ) وهذبها عبدالملك بن هشام (٢١٤هـ)، وغيرها من الكتب الأخرى، أمثال كتب الحديث والمعارف العامة، والتي أثبتناها في أواخر البحث.

تلك هي ملامح البحث ومحدداته، وأهم المصادر التي اعتمد عليها، نسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وهدية نقدمها إلى أعتاب بيته الحرام، عسى أن تنفعنا في يوم لاينفع فيه مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

الأخسف: لغة واصطلاحاً:

الأخسف ومصدرها (خسف وتخسف، أو تعني الدنو والانحطاط، وبئر خسيف وتعني عين غائرة، وبئر محفورة في صخر لاينقطع ماؤها لكثرته، وهي جمع خسف وأخسفة)، ويعطي الفراهيدي (ت١٨٢هـ) توضيحاً أشمل لمعنى النص المختلف على دلالاته إذ يقول: (الخسف سؤوخ الأرض بما عليها من الأشياء، وبئر خسيف مخسوفة، أي نقب جبلها عن عيلم الماء فلا تنزف أبداً).[١]

ويتوافق ابن فارس (ت٣٢١ هـ) مع ما ذكره سابقه من أن مصطلح (خسف) هو من الغموض والغور، وبئر خسيف إذا كسر جبلها فانهار

ولم ينشرخ ماؤها.[٢]

وفي مورد آخر أخسفت الأرض خسفاً وخسوفاً غارت بما عليها، وأخسفت العين عميت، ويقال حفر فأخسف، وجد بئره غائرة.[٣]

ولأجل ذلك أطلق الناس على البئر الموجودة في الكعبة بالأخسف، نتيجة لغوار مائها واندثارها، فضلاً عن أنّ هذه البئر لم تكن يوماً لغرض استنباط الماء والشرب منها، فلم تتحدث المصادر عن استعمالها للسقي مع وجود بئر زمزم القريب منها، بل كانت لحفظ الأموال والهدايا المقدمة للكعبة.

يتحدث الأزرقي (ت٢٤٤هـ) عن رواية أخرى وترجيح مغاير لذلك من أنّ تسمية الأخسف جاءت من انخساف هذه البئر بالسارق، الذي أراد تدنيس الكعبة وسرقة كنوزها ومالها، « فأرسل الله عزّوجلّ حجراً من البئر فحبسه، حتى راح الناس، فوجدوه، فأخرجوه، وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر، فسميت تلك البير الأخسف».[٤]

وردت تسمية الأخسف في المصادر القديمة منحصرة بالبئر، التي في جوف الكعبة على يمين الداخل إليها، ولكن هنالك تسميات عديدة أطلقت عليها عند العرب أمثال بئر الكعبة، أو جبّ الكعبة، والفرق بين الجبّ والبئر أنّ الأول هو أعمق من الثاني، فكل جبّ هو بئر، و ليس كل بئر هي جبّ.

القدم التاريخي لبئر الكعبة (الأخسف)

يتحدث الإخباريون العرب أنّ بئر الكعبة والمعروف بالأخسف، ترجع بقدمها إلى وقت رفع النبي إبراهيم عليه السلام لقواعد البيت العتيق، حيث تحدثت الروايات عن حفره عليه السلام هذه البئر؛ لتكون بمثابة خزينة لحفظ

ما يهدى للكعبة من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك.[٥]

وذهبت بعض الأقوال إلى أنّ بئر الكعبة هي الحطيم،[٦] ولكن هذا الرأي لا يعتدّ به، فالمشهور عند معظم علماء المسلمين في ذلك أنّ الحطيم هو المكان الذي بين باب الكعبة والحجر الأسود.[٧]

ولكن مع هذا التعارض والغرابة في ذهاب البعض إلى عدّ الحطيم هو بئر الكعبة، نستطيع أن نستصحب قرينة وجود بئر الكعبة على يمين الداخل إلى جوف الكعبة بحسب رواية الأزرقي،[٨] وبين التحديد المكاني للحطيم الذي يقع بحسب هذه القرينة خلف الجدار الملاصق للبئر على اعتبار أن مقام إبراهيم والحجر يقعان إلى يمين باب الكعبة، وكما هو ملاحظ للعيان في هذه الأزمنة.

ومن ثمَّ فإنّ وظيفة هذه البئر كانت بالدرجة الأساس لتكون خزينة للكعبة، إذ لم تتحدث المصادر المتقدمة عن رواية أخرى تخالف ذلك أو تعارضه، وهذا الأمر هو أقرب للواقع؛ لأنّ هذه البئر قد وجدت في جوف الكعبة قبل أن يكون لها حجبة يحجبون الناس من الدخول إليها، فضلاً عن ذلك، فلم يكن في تلك العصور السحيقة في القدم أبنية ومواضع لحفظ الأموال والهدايا، يدل على ذلك ما وصل إلى عاصمة الخلافة (المدينة المنورة) من أخماس الفتوحات وصدقات الأقاليم من الأموال والحلي، أنّها قد طرحت على باحة المسجد، وقال عند ذلك الخليفة عمر بن الخطاب بعد ما رأى كثرة الأموال المطروحة على الأرض «إنه قد قدم علينا مال كثير، فإن شئتم أن نعدّ لكم عداً، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً».[٩]

فعند ذلك لم يكن لدى المتولين

لأمور الكعبة أي موضع آخر غير هذه البئر التي حفرت لهذا الغرض، فضلاً عن أنّ وجودها في جوف الكعبة لم يكن لغرض شرب الماء منه مع وجود بئر زمزم بالقرب منها، ومقدار عمق هذه البئر الذي حدده الواصفون له بقرابة المتر والنصف (ثلاثة أذرع) وعرضه ما يدور فيه الرجل حول نفسه.[١٠]

مرت على هذه البئر أحداث وعصور متعددة، ونتيجة لوجودها في مكان مقدس، لم يفكر أيّ أحد بمدّ يده إليها، ووضعت فيها أنفس الأشياء وأثمنها من مقتنيات البشر ولوازمهم من الذين يحجون لهذا البيت، بل وحتى العهود والمواثيق والمكاتبات، إذ يتحدث المؤرخون عن عثور قريش عند نقضها للبيت وبنيانه قبيل الإسلام، أنّهم قد وجدوا في بئر الكعبة كتابين قد رُميا فيها من صفر مثل بيض النعام مكتوباً في أولها: «هذا بيت الله الحرام رزق الله أهله العبادة، لا يحله أول من أهله» والآخر: «براءة لبني فلان حي من العرب من حجة لله حجوها».[١١]

بقيت الكعبة وهذه البئر على حالها الذي بنيت فيه لدرجة أن لم يكن يظلل هذا البيت سقف، وحتى البنيان الذي بنيت به الكعبة لم يعطِ لهذا البيت منعة من الأطماع سوى القداسة والرهبة، التي كانت في نفوس الناس نحوه، ولم يدنسه أي صنم أو وثن، ولكن تقادم الزمن، وتبلبل عقول الناس، وانحرافهم عن الشرائع والسنن، التي جاء بها الأنبياء؛ لتسري عبادة الأصنام تدريجياً في أرض العرب المتبعة لحنيفية إبراهيم عليه السلام سريان النار في الهشيم، فقام زعيم مكة في وقته (عمرو بن لحي) بجلب صنم يدعى هبل إلى أرض العرب، وأدخله جوف الكعبة، ووضعه فوق بئر الأخسف،

وأمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده.[١٢]

إنّ وجود الأصنام في هذا البيت مع اعتقاد كل قبيلة بصنم تعبده، قد زاد من النذور والهدايا المقدمة إلى الكعبة، ولا سيما تلك التي وضعت في البئر الأخسف، حتى عند فتح الرسول صلى الله عليه وآله لمكة سنة ٨ هـ وتطهيره الكعبة من أرجاس الجاهلية وأوثانها، وجد في تلك البئر قرابة سبعين ألف أوقية من ذهب كان يهدى إلى البيت والأصنام التي في جوفه.[١٣]

بقيت هذه البئر على وضعها الأول أيام جرهم إلى أيام النبي صلى الله عليه وآله إذ تحدثت كتب السيرة عن بنيان قريش للبيت قبل البعثة بخمس سنين، وهذا البنيان قد أتى على هذه البئر وعفاها، وأعيدت من جديد.

ويتحدث الأزرقي عن وصف ذلك في رواية طويلة عن كيفية إعادة بناء البيت بعد هدمه، وإخراج الكنوز والأموال الموجودة في تلك البئر محل الشاهد منها:

«أخرجوا ما كان في البيت من حلية ومال وقرني الكبش [الذي فدي به إسماعيل] وجعلوه عند أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان بن عبدالدار بن قصي، وأخرجوا هبل، وكان على الجبّ الذي فيه نصبه عمرو بن لحي هنالك، ونصب عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت، فردوا ذلك المال في الجبّ، وعلقوا فيه الحلية وقرني الكبش، وردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي، ونصبوا هبل على الجبّ، كما كان قبل ذلك، وجعلوا له سلماً يصعد عليه إلى بطنها...».[١٤]

السرقات والتعدي التي تعرضت لها بئر الكعبة وخزينتها:

كانت الأموال الجزيلة والهدايا

النفيسة، التي رميت في جبّ الكعبة، وعلقت على جدرانها الداخلية مدعاة لأن تشرئب لها أعين الطامعين والرعاع من الذين لا يتورعون عن فعل أي منكر مهما كانت درجة قبحه وشناعته، وهو ما دفع البعض للسطو على ذلك البئر وسلب محتوياته، حيث تتحدث المصادر من أنّ حرمة الكعبة قد انتهكت مرات عديدة، وذلك من خلال التعدي عليها وأكل مالها وسرقته، إذ تتحدث المصادر عن قيام مجموعة من اللصوص بمحاولة سرقة الهدايا والحلي التي أهداها الناس للكعبة، والتي وضعت في بئرها الأخسف، وذلك في أيام جرهم التي وصفها المؤرخون بأنّها قد وصلت من البغي والتعدي على حرمات بيت الله أن استحلوا حرمتها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها، وظلموا من دخل مكة، ثمَّ لم يتناهوا حتى جعل الرجل منهم إذا لم يجد مكاناً يزني فيه يدخل الكعبة فيزني.[١٥]

ولشدة بغي هذه القبيلة أن وصل الأمر باستهتارها أن قام خمسة من رجالاتها بمحاولة سرقة المال الذي في جبّ الكعبة، لا سيما أنّ الكعبة في أيامهم لم يكن لها سقف، حيث يصف الأزرقي هذه الحادثة بالقول: «وكان للبيت خزانة بئر في بطنه، يلقى فيها الحلي والمتاع الذي يهدى له، وهو يومئذ لا سقف له، فتواعد له خمسة نفر من جرهم أن يسرقوا ما فيه، فقام على كل زاوية من البيت رجل منهم واقتحم الخامس، فجعل الله عزّوجلّ أعلاه أسفله، وسقط منكساً فهلك، وفرّ الأربعة الآخرون، فعند ذلك مسحت أو مسخت الأركان الأربعة».[١٦]

تكررت حادثة السرقة في تلك الحقبة التي سبقت الإسلام، إذ ينقل السهيلي (ت٥٨١ هـ) رواية عن

محاولة أخرى؛ لسرقة محتويات تلك البئر أيام جرهم، لدرجة أنّه دخل رجل تلك البئر، التي فيها كنزها، فسقط عليه حجر فحبسه فيها، حتى أخرج منها وانتزع المال منه.[١٧]

أعطى الأزرقي توضيحاً وتفصيلاً لهذه الحادثة، إذ أعتبر أنّ السارق لهذا الكنز هو الشخص الذي وضع لحراسته، وربما كانت حادثة أخرى، ولكن وقائعها تشبه سابقتها إذ قال: «وكانت الكعبة ليس لها سقف، فسرق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة، وكانت جرهم ترتضي لذلك رجلاً يكون عليه يحرسه، فبينا رجل ممن ارتضوه عندها إذ سولت له نفسه فانتظر حتى إذا انتصف النهار، وقلصت الظلال، وقامت المجالس، وانقطعت الطرق، ومكة إذ ذاك شديدة الحر، بسط رداءه، ثمَّ نزل في البئر، فأخرج ما فيها، فجعله في ثوبه، فأرسل الله عزوجل حجراً من البئر فحبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه، وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر، فسميت تلك البير الأخسف».[١٨]

تتحدث المصادر العربية القديمة ورواة أخبارها السابقة أنّ الله قد قيض ثعباناً ضخماً يحرس هذا الجب، بعد ما رأى عجز البشر عن الصمود على إغراء المال الموجود فيه حتى أنّهم قالوا عن هذا الثعبان أقوالاً عدة وصلت حدَّ المبالغة، لدرجة أن جعلوا عمرها أكثر من خمسمائة عام، فلا يدخله أحد إلاّ رفع رأسه وفتح فاه، فلا يراه أحد إلاّ ذعر منه، وكان ربما يشرف على جدار الكعبة، فأقام كذلك في زمن جرهم، وزمن خزاعة، وصدراً من عصر قريش.[١٩]

ولكن هذا العمر الطويل لهذا الثعبان لم نجده في مصنفات أخرى، بل اكتفت بالحديث عن وجود حية

تسكن بئر الكعبة تخيف الداخل إليها التي اختطفها طائر من على جدار الكعبة ورماها بالحجون خارج مكة.[٢٠]

بينما ذكرت مصادر أخرى أنّه جاء عقاب فاختطفه ثم طار به نحو أجياد الصغير.[٢١]

إنّ هذه الأفعي التي كانت على بئر الأخسف، قد أعطاها السهيلي بعداً وذلك من خلال إيراد رواية أكثر غرابة قد شكك فيها نفسه من جعل ذلك الثعبان الدابة التي تكلم الناس قبل يوم القيامة وذلك أنّ الطائر أو العقاب، الذي اختطف الحية قد طرحها في الحجون والتقمتها الأرض.[٢٢]

ولكن هذا الكلام تدحضه الأحوال الطبيعية لعمر الأفعي، والتي حددت وفق تحديدات ذلك العصر بعمر النسر بحسب تحديد الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتاب الحيوان، والدميري (ت٨٣٧هـ) في حياة الحيوان.

مع كل ما ذكر، فإنّ ذهاب هذه الأفعي المخيفة من على بئر الكعبة وجوفها، قد شجع قريشاً على الشروع بإعادة بناء الكعبة، بعد أن ذهب الحارس الفعلي للبئر، وأصبحت الأموال المودعة فيها عرضة للسرقة؛ لأنّ مكوث ذلك الثعبان في جوف البئر تلك الفترة الطويلة قد حال دون وصول يد السراق إليها، فضلاً عن أنّ الكعبة ليست بالمحصنة من الداخل مما تمنع الطامعين بالتعدي على أموالها، فقد كانت غير مسقفة، وقد حفّز هذا قريشاً على الشروع بهذا الأمر الذي أرادوا منه القربة إلى الله، حتى عدّ البعض منهم اختطاف الطير لثعبان البئر إشارة من السماء على قبول مسعاهم هذا، إذ كان وجود الثعبان يحيل بينهم وبين هذا المسعى.

بقي المال الذي في البئر على حاله، ووصلت لدى قريش قناعة من أنّ لهذا البيت ربّاً يحميه، ويقيض له من يحميه، وإنّ المال الموجود فيه، ليس لأحد أن يتصرف فيه أو يمتلكه؛ لأنه مال البيت، بل وحتى إنّ قريشاً حينما بنت الكعبة لم تتحدث المصادر عن توظيف ذلك المال في بنائها، بل قلصت من حجم البيت؛ لعدم كفاية النقود الحلال، التي استحصلوها من مالهم، الذي اشترطوا أن لا يكون من رباً، أو مهر بغي، أو مظلمة لأحد.[٢٣]

لأجل ذلك كان حجبة الكعبة من آل شيبة من بني عبد العزى ينصحون أبناءهم بعدم مدّ أيديهم إلى مال الكعبة، وأنّهم لن يزالوا بخير ما دامت أيديهم عفيفة عنه، وإن كان الرجل ليصيب منه الشيء فيضعه عند الناس، بل وحتى مجرد التفكير بالاقتراض والاستدانة منه؛ لأنّهم وجدوا من خلال الأجيال المتعاقبة منهم على حجابة البيت أنّ هذا المال ما خالط مالاً قطّ إلاّ محقه، ولم يرزأ أحد منه قط.. إلاّ بان النقص في ماله، وأدنى ما يصيب صاحبه أن يشدد عليه الموت.[٢٤]

يؤكد هذا النص الحوادث التاريخية، التي مرت على هذا البيت، والذين أرادوا سرقة هذا المال، حتى كانت أشهر سرقة تعرض لها مال الكعبة وكنزها قبل الإسلام بعشر سنين، وكان ممن اتهم بها الحارث بن عامر بن نوفل وأبو إهاب بن عزيز.، وأبولهب بن عبدالمطلب، حيث سرق الغزال الذي نصبه عبدالمطلب على باب الكعبة، وهو مما وجده في أثناء حفر بئر زمزم مما دفنته جرهم فيها.[٢٥]

فما كان من قريش إلا أن قطعت أيدي السراق، وحكموا بطرد الباقين من مكة عشر سنين وإرجاع قيمة

مال الكعبة المسروق فكان سنة أقرها الإسلام.[٢٦]

دفعت هذه الأمـور المتعاقبة من اسـتحلال مال الكعبـة، والتعدي على خزينتهـا إلى التفكير في إعادة بنائها، وتسقيفها، ورفعها، وفعلاً تمَّ بناؤها ورفعها وتسـقيفها من قبل قريش، قبيـل البعثة النبوية بخمس سنين.[٢٧]

وحينما قامت قريش بهذا الأمر حفظت عنـد ذاك خزينتهـا، والمال الموجـود في بئر الأخسـف، إلى أن جاء الإسـلام، و دخل رسول الله ﷺ مكة، بعد أن فتحت سـنة ٨ هـ أي بعد ستة وعشرين عاماً تقريباً على بنائها، ولم يغيّر من مجرياتها شيئاً، بل لم يأخذ من مالها، الذي قدر بسبعين ألف أوقيـة من ذهب.. أي ما يعادل (ألف ألف وتسعمائة ألف وستون ديناراً ذهباً).[٢٨]

دللـت النصوص آنفـة الذكر علـى الأدوار التاريخيـة التي كانت لبئـر الكعبـة منذ تأسيسـها وإلى ظهور الإسلام، والتي أظهرت حجم الحوادث التي مرت على هذه البئر، ولكن بمجيء الإسلام تغيرت الحالة؛ لتحـدث هنالك مواقف أكثر تنوعاً بين الرعية في توظيف المال الموجود في هـذه البئـر، وبين تركـه ينفق في مصـالح البيت الحـرام، وهذا ما ستوضحه الصفحات اللاحقة.

الأخسـف وأحوالـه في العصـور الإسلامية:

كانت مدينة مكة من أشد المدن، الـتي عارضت النـبيَّ محمداً ﷺ في بداية الدعوة الإسلامية، إذ لم تنشرح قلـوب أهلها إلاّ النـزر القليل إلى هذا الدين الجديـد؛ فلذلك بقيت مكة خارج حدود الإسلام مدة واحد وعشرين عاماً إلى أن فتحها النبي ﷺ سنة ٨ هـ.

طيلة هذين العقدين من الزمن لم تكن مجريات الأمور كسابقتها في العقود السالفة، فأحوال الناس بدأت بالتحسن، ولا سيما في العقود التي سبقت الإسلام بعد نشاط التجارة، وتغير طرق النقل الدولية وقوافل البضائع إلى طريقي اليمن والشام، بعد الحروب المستعرة والمستمرة بين الدولتين الساسانية والبيزنطية.[٢٩]

فالكعبة كان يهدى لها المال في الجاهلية تعظيماً لها؛ لذلك تجمعت في خزينتها على مدى الأيام كميات كبيرة من الأموال والحلي والهدايا، حددتها بعض المصادر بسبعين ألف أوقية من الذهب، وذلك حين فتح الرسول صلى الله عليه وآله مكة سنة ٨ هـ.[٣٠]

لم يقدم الرسول محمد صلى الله عليه وآله على التصرف بهذا المال، رغم ما أبداه من رغبة بذلك؛ خدمة لمصالح المسلمين الذين كانوا في حاجة إليه، ولكن الذي منعه من ذلك ما تردد على لسانه وأخبر به صلى الله عليه وآله زوجته عائشة قائلاً: «لولا أنّ قومك حديثو عهد بكفر؛ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله..».[٣١]

إنّ هذه الرغبة التي كانت من الرسول صلى الله عليه وآله حفزتها مقولة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إليه يوم فتح مكة بعد ما شاهد الكميات الضخمة من الأموال التي حواها هذه البئر: يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك. فلم يحركه.[٣٢]

يبين لنا هذا النص حراجة الخطوة، التي لو قيض للرسول صلى الله عليه وآله اتباعها في وضع اليد على الأموال والحلي، التي حوتها بئر الكعبة، وذلك لأنّه قد وجد في كنز تلك الأموال تعطيلاً لموارد ضخمة، لو قسمت بين الناس، وأنفقت في مصالحهم؛ لأعادت عليهم بالخير فنجد أنّ الذي حال بين الرسول صلى الله عليه وآله وهذا المسلك هو خشيته من تأويل قليلي

الإيمان؛ أنّه طمع وتعدي على هذا المال المقدس في نظرهم، وهم بعد لما يدخل الإيمان في قلوبهم، وهذا ما أوضحته عبارته الشريفة: «لولا أنّ قومك حديثو عهد بكفر». ورغب الخليفة الثاني عمر (١٣ـ٢٣هـ) بتوزيع كنز الكعبة، إلا أنه لم يقم بذلك، بعد ما وجد سابقه الخليفة أبابكر (١١ـ١٣هـ)، لم يخالف ما أراده الرسول صلى الله عليه وآله ولم يقم بمثل هذه الخطوة الحساسة.[٣٣]

لقد أشارت النصوص إلى رغبة عمر الحقيقية في الاستفادة من الأموال المودعة في بئر الكعبة على اعتبار أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال ذلك وهو بعد في قوم قد تألفت قلوبهم تواً، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه اليوم في قوة ومنعة، تدفعة لطرح ذلك التوجس الذي كان في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وعدم البناء عليه، ولكنه جوبه بمواقف معارضة وعنيفة من قبل كبار الصحابة، إذ نقل الأزرقي تلك المواقف، فقد روى نصيحة الصحابي أبي بن كعب لعمر بعدما أفصح له عن رغبته بعدم ترك أي بيضاء أو صفراء في جبّ الكعبة، إلاّ ويقسمها بين الناس، فما كان من أبي بن كعب إلاّ أن قال له: والله ما ذلك لك، قال: ولم؟ قال: قرر الله موضع كل مال وأقره رسول الله، قال: صدقت.[٣٤]

أما الإمام علي عليه السلام فقد كان من أكثر وأشد المعترضين على هذا المسلك، بعدما رأى أكثر من مرة إلحاح عمر عليه، وهمته في الشروع بتقسيم مال الكعبة، فرد عليه قائلاً: «ليس ذلك إليك، فقال عمر: صدقت. أو قال له: أتجعله فيئاً وأحرى صاحبه، رجل يأتي في آخر الزمان ضرب أدم طويل».[٣٥]

وفي رواية أخرى ينقلها ابن أبي الحديد المعتزلي (٦٥٦هـ) تختلف في

المعنى وتتفق في مضمون سابقتها من أنّ بعض المقربين من عمر قد زين له إنفاق مال الكعبة في تجهيز جيوش المسلمين، وهذا أعظم أجراً من ترك هذا المال دون استفادة الأمة منه، فاستحسن عمر ذلك، وسأل عنه الإمام علياً عليه السلام فرد عليه قائلاً: «إن هذا القرآن أنزل على محمد صلى الله عليه وآله والأموال أربعة أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض، والفيء فقسمه على مستحقيه، والخمس فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها، وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله على حاله، ولم يتركه نسياناً، ولم يخف عنه مكاناً، فأقره حيث أقره الله ورسوله، فقال عمر: لولاك لافتضحنا...».[٣٦]

ولأجل تلك المواقف ظلت الكعبة محتفظة بذلك المال في بئرها الأخسف عهوداً طويلة، حيث ذكر الأزرقي أنّ ذلك المال بقي على حاله إلى سنة ثمان وثمانين ومائة، وليس له علم، ماذا حل بهذا المال بعد ذلك التاريخ، وفق ما أخبره بعض حجبة الكعبة من آل شيبة.[٣٧]

يضاف إلى ما تقدم، فقد استعملت خزينة الكعبة، والتي في جوفها كمكان لحفظ الأمانات والودائع من الأموال الخاصة دون خلطها مع أموال الكعبة، بل كانت توضع في صرر وبدر خاصة، إذ ذكر المؤرخون إلى أنّ عمر بن الخطاب حينما أراد توسعة المسجد الحرام، قام بشراء الدور الملاصقة له، ومن الجهة التي يراد التوسعة منها، ومن لم يقبل البيع، هدم داره، وترك ثمنها لأربابها في خزانة الكعبة حتى أخذوها بعد ذلك.[٣٨]

وسع عثمان في أيامه (٢٣ـ٣٥هـ) توسعة أخرى في الحرم، إذ سلك فيها مسلك عمر في هدم دار من يمتنع عن البيع، وترك ثمنها في خزينة

الكعبة، ولكن موقفه هذا جوبه بموقف متعنت وصل حد الصياح والتأليب عليه من قبل أرباب تلك الدور حتى دعاهم وقال لهم: «إنما جرأكم عليَّ حلمي عنكم، فقد فعل بكم عمر هذا، فلم يصح به أحد، فاحتذيت على مثاله فصحتم بي» ثم أمر بهم إلى الحبس حتى كلمه فيهم عبدالله بن خالد بن أسيد فتركهم.[٣٩]

يدلل النصّان آنفا الذكر أنّ كلاً من عمر وعثمان لم يمدا أيديهما على المال المطروح في بئر الكعبة، بل وحتى في الإنفاق عليها وتوسعتها؛ لأنّ عبارة (فوضعت أثمانها في خزانة الكعبة حتى أخذوها بعد) تظهر تخصيصهما أموالاً من بيت مال المسلمين؛ لغرض توسعة المسجد الحرام.

وهنا يطرح التساؤل حول مصير ذلك المال، فهل تعرض للسرقة والسطو عليه، وكما في الأيام الغابرة، أم ذكرت النصوص شيئاً من بقايا ذلك المال في العقود والقرون التالية؟ فهل سرقه الحجبة، وكما أشارت إلى ذلك العديد من النصوص، التي نقلها المؤرخون من حالات اعتداء تكررت على طول القرون، التي انصرمت من قبل حجبة الكعبة على مال الكعبة؟[٤٠]

إذ لم تكن تلك الاعتداءات وليدة العهود المتأخرة، بل تحدثت المصادر عن إمتعاض الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام من مواقف الحجبة في أيام إمامته (٩٤ـ١١٤ هـ) الذين لم يتورعوا في الاستحواذ على الأموال، التي أهديت ونذرت إلى الكعبة، فقد قال عليه السلام: «إنّ من علمي أن لو وليت شيئاً من أمر المسلمين، لقطعت أيديهم ثم علقتها في أستار الكعبة، ثم أقمتهم على المصطبة، ثم أمرت منادياً ينادي ألا إنّ هؤلاء سراق الله فأعرفوهم».[٤١]

أعطى هذا النص إشارة إلى ما كان يكنه الناس من مشاعر ووجهات نظر إزاء أولئك الحجبة حتى إنّ الإمام الباقر عليه السلام لم يحبذ إعطاء الأموال للكعبة على اعتبار أنها ليست في حاجة إلى هذه الأموال، وإن الذين عليها ليس مما يؤتمن لهم وضع ذلك المال عندهم، حتى قال لسائل سأله عن جدوى إعطاء المال للكعبة، فردّ عليه الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الكعبة غنية عن هذا، أنظر إلى من أمّ هذا البيت فقطع به، أو ذهبت نفقته، أو ضلت راحلته، أو عجز أن يرجع إلى أهله، فادفعها إلى هؤلاء الذين سميت لك».[٤٢]

وفي نصّ آخر يعبر عن تلك المشاعر المتشنجة إزاء حجبة البيت وخزنته من آل شيبة ما أورده المحدثون في رواية يسندونها إلى شقيق بن سلمة، يحاور فيها شيبة بن عثمان حاجب البيت وخازنه قائلاً فيها: «بعث رجل معي بدراهم، هدية إلى البيت. قال، فدخلت البيت وشيبة جالس على كرسي. فناولته إياها. فقال له: ألك هذه؟ قلت: لا. ولو كانت لي، لم آتك بها. قال: أما لئن قلت ذلك، لقد جلس عمر بن الخطاب مجلسك الذي جلست فيه. فقال: لا أخرج حتى أقسم مال الكعبة بين فقراء المسلمين. قلت: ما أنت فاعل. قال: لأفعلن. قال: ولم ذاك؟ قلت: لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قد رأى مكانه. وأبوبكر. وهما أحوج منك إلى المال. فلم يحركاه. فقام كما هو، فخرج».[٤٣]

نظر الناس إلى هذا الكنز الذي في بئر الكعبة نظرة فيها ارتباط ملحمي من الحوادث والمجريات، التي ستجيء في آخر الزمان، إذ نقل المحدثون حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله جاء فيه: «أتركوا الحبشة ما تركوكم، فإنه لايستخرج كنز الكعبة إلا ذو

السويقتين».[٤٤]

وفي رواية أخرى أكثر تفصيلاً ينقلها الحاكم النيسابوري (ت٤٥٢هـ) في أخبار المهدي وأشراط الساعة قائلاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليبايع بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلاّ أهله، فإن استحلوه، فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تجيء الحبشة فتخربه خراباً لا يعمر بعده أبداً، وهم الذين يستخرجون كنزه».

تراءى هذا الحديث أمام ناظري عبدالله بن الزبير حينما أراد بناء الكعبة، بعد ضرب الحصين بن نمير السكوني لها، أيام محاصرته مكة أيام يزيد وتصدع البنيان، إذ أرقى إلى سطحها عبيداً من الحبشة يهدمونها، رجاء أن يكون فيهم صفة الحبشي، الذي وصفه رسول الله.[٤٥]

شكل هدم الكعبة أيام ابن الزبير نقطة تحول مهمة في تاريخ الكعبة بعامة و(بئرها الأخسف) بخاصة، إذ ذكر الصالحي (ت٩٤٢هـ) رواية مهمة تظهر قيام عبدالله بن الزبير بإخراج ما كان في الكعبة من الحلي وأشياء ثمينة، وأموال مودعة في جوفها، ونقله إلى خزانة الكعبة المستحدثة في دار شيبة بن عثمان.[٤٦]

بعد هذا النقل لم تشر النصوص، التي أرخت لتاريخ الكعبة أنّ تلك الأموال قد رجعت إلى مكانها في البئر التي ربما قد أزيلت معالمها في هدم ابن الزبير والحجاج للكعبة، وقد تحدثت المصادر عن ردم جوف الكعبة وأرضيتها بالحجارة.[٤٧]

فضلاً عن ذلك أنّ الرواة بدأوا يتحدثون عن خزانة جديدة للكعبة في نهاية القرن الأول الهجري في دار شيبة؛ وهذا ما شكل نقطة النهاية في تاريخ بئر الكعبة العتيد، وأصبح أثراً بعد عين.

الهوامش:

١ . العين١ : ٤٠٨ باب الخاء.
٢ . معجم مقاييس اللغة٢ : ١٨٠ ـ ١٨١.
٣ . الزبيدي، تاج العروس١٢ : ١٦٧.
٤ . أخبار مكة١ : ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
٥ . أخبار مكة: ٢٤٤.
٦ . ابن حجر، فتح الباري٧ : ١٢٠؛ العيني، عمدة القاري١٦ : ٢٩٩.
٧ . الكليني، الكافي٤ : ٥٢٥ ـ ٥٢٦ ؛ الصدوق، من لا يحضره الفقيه٢ : ٢٠٩؛ فتح الباري٦ :٢٨٦؛ العيني، مواهب الجليل٤ : ٥٢٣.
٨ . أخبار مكة١: ٢٤٤.
٩ . ابن سعد، الطبقات الكبرى٣: ٣٠٠ ؛ البلاذري، فتوح البلدان٣: ٥٥٤.
١٠ . الأزرقي، أخبار مكة١: ١١٧.
١١ . أخبار مكة١: ٧٩ ؛ سيرة ابن إسحاق: ١٠٦ (بتصرف).
١٢ . الأزرقي، أخبار مكة١: ١١٧ ؛ سيرة ابن إسحاق: ٣٢. لكن ابن الكلبي يذكر أن من نصب هبل هو خزيمة بن مدركة بن إلياس بن منصور كان يقال له هبل خزيمة. الأصنام: ٢٨.
١٣ . وقد حددت قيمة هذا المال بألف ألف وألف وتسعون ألف دينار، القاضي الرشيد، الذخائر والتحف: ١٥٥؛ المتقي الهندي، كنز العمال١٤: ١٠٨.
١٤ . أخبار مكة١: ١٦٦ ـ ١٦٧.
١٥ . تاريخ الطبري٢: ٢٨٤.
١٦ . أخبار مكة١: ٨٧ .
١٧ . الروض الأنف١: ٣٤٣.
١٨ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٤ ــ ٢٤٥.
١٩ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٥ ؛ السهيلي، الروض الأنف١: ٢٤٣.
٢٠ . ابن الأثير، الكامل في التاريخ٢: ٤٤.
٢١ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٥.
٢٢ . الروض الأنف١: ٣٤٤.
٢٣ . تاريخ الطبري٢٧: ٢٨٧ ؛ سيرة ابن إسحاق: ١٠٤
٢٤ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.
٢٥ . تاريخ الطبري٢: ٢٨٣ ، ٢٨٦ ؛ ابن حبيب، المنمق: ٦١، ٤٢١.
٢٦ . سيرة ابن إسحاق:١٠٣ ـ ١٠٤، المنمق: ٤٢١.
٢٧ . سيرة ابن إسحاق: ١٠٣، أخبار مكة: ١٥٨ ـ ١٦٠، تاريخ الطبري ٢ : ٢٨٣.
٢٨ . الأزرقي، أخبار مكة١: ٢٤٦ ؛ القاضي الرشيد، الذخائر والتحف: ١٥٥ ؛ المتقي الهندي، كنز العمال٤: ١٠٨.
٢٩ . باتريشا كرون، تجارة مكة.
٣٠ . الأزرقي، تاريخ مكة١: ٢٤٦؛ القاضي الرشيد، الذخائر والتحف: ١٥٥.
٣١ . التاج الجامع للأصول، الشيخ منصور علي ناصف٢: ١٧٩.
٣٢ . الأزرقي، تاريخ مكة١: ٢٤٦.
٣٣ . تاريخ مكة١: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

٣٤ . تاريخ مكة١: ٢٤٥ ؛ البلاذري، فتوح البلدان١: ٤٩.
٣٥ . تاريخ مكة١: ٢٤٦.
٣٦ . شرح نهج البلاغة١٩: ١٥٨ –١٥٩ . رقم ٢٧٦.
٣٧ . تاريخ مكة١: ٢٤٧.
٣٨ . تاريخ مكة٢: ٦٩ ؛ تاريخ الطبري٤: ٢٠٦ ؛ الفاسي، شفاء الغرام١: ٢٢٤ ؛ ابن فهد، إتحاف الورى٢: ٨ .
٣٩ . تاريخ مكة٢: ٦٩ ؛ تاريخ الطبري٥: ٤٧ ؛ ابن فهد، إتحاف الورى٢: ١٩.
٤٠ . تاريخ مكة١: ٢٤٧ـــ ٢٤٨ ؛ وكيع، أخبار القضاة١: ٢٦٧.
٤١ . الكليني، الكافي٤: ٢٤٢.
٤٢ . الكليني، الكافي٤: ٢٤١.
٤٣ . ابن ماجة، السنن٢: ١٠٤٠ ؛ الطبراني، المعجم الكبير٧: ٣٠٠.
٤٤ . مسند أحمد٥: ٣١٧ ؛ سنن أبي داود٤: ٢١٤ ؛ الحميري، قرب الإسناد: ٨٢ .
٤٥ . أخبار مكة١: ٢٠٥.
٤٦ . سبل الهدى والرشاد١: ١٦٧.
٤٧ . ابن كثير، البداية والنهاية١: ١٩١.